

السياسة عند لسان الدين ابن الخطيب

أحمد عبدالحليم عطية

(١) مقدمة :

يعتبر لسان الدين بن الخطيب شاعر و وزير و مؤرخ غرناطة من كبار صناع سياسة عصره ، ومن ضحايا هذه السياسة . لقد كان نتاجا لهذا العصر، فهو ابن الاندلس واديبها ومؤرخها الكبير وكذا كان كثيرون غيره امثال : ابن خلدون، ابن الازرق والمرادى (ابوبكر محمد بن الحسن) والمالقي (ابى القاسم ابن رضوان). فهم عبقریات حقيقية لكنهم ليسوا ظواهر فردية نبالغ لأسباب مختلفة فى تعظيمها وكأنهم جزا معزولة عن غيرها حيث نجد أنفسنا ، ودون ان ندري، نفقر العقلية العربية الاسلامية من اجل تعظيم الشخصية، موضع البحث التى نتناولها خارج سياقها التاريخى وكأنها معلقة فى القضاء : فلا ترجع عبقرية ابن خلدون العلامة المؤرخ الا بكونه اوجد زمانه وفريد عصره ولا تظهر عقلانية ابن رشد الا فى اللاعقلانية السائدة فى بنى جنسه! ومقابل ذلك ينبغى علينا التأكيد على كون ابن الخطيب .. من صناع سياسة هذا العصر ومن نتائجه فى نفس الوقت .. . ولكن نصل الى بيان

وتوضيح حقيقة هذا القول ينبغي علينا اولا رسم صورة حقيقية للرجل في عصره . وذلك لن يتأتى الا بتحديد المصادر التي تساعدنا في رسم هذه الصورة من وجهيها ثم بيان جهوده المختلفة واهم كتاباته السياسية وما قدمه فيها من نظريات . ومصادر ابن الخطيب هي :
اولا : كتابات ابن الخطيب التي ترجم فيها لعصره واعلامه وترجم فيها لنفسه .

- مثل الموسوعة الضخمة التي كتبها للتعريف بالحياة التاريخية والسياسية والاجتماعية لغرناطة وكبار اعلامها : ,,الاحاطة في اخبار غرناطة« (١) .

- ,,اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام« (٢) . الذي يذكر فيه حياته بعد حروبه من الاندلس واستقراره بتلمسان ثم فاس .

- ,,التاج المحلى في مساجلة القدر المعلى« (٣) . كما نجد في بقية كتبه الأخرى اشارات عديدة لحياته، كما يظهر في ,,نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب« (٤) .

ثانيا : ما كتبه عنه معاصروه مثل : ابن خلدون في تاريخه الكبير (٥)، والتعريف برحلة ابن خلدون (٦)، وما كتبه يحيى ابوبكر بن خلدون اخر العلامة الكبير في ,,بقية الرواد من ذكر الملوك من بنى عبدالوادي« (٧) .

- وكتابات الامير اسماعيل ابن الاحمر خاصة : ,,نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان« (٨) و ,,نثر الجمال في شعر من نظمى واياه الزمان« .

- والمقرى الذى افاض فى التاريخ لابن الخطيب وجعله اسمه عنوانا لكتابه ,,نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب« (٩) . وايضا كتبه ,,ازهار الرياض في اخبار

عياض» (١٠) . وتعتبر كتابات المقرئ المرجع لكل من تصدى للكتابة عن ابن الخطيب حيث اعتمد عليها كثير من الباحثين (١١) .
وتعطينا هذه المصادر صورة واضحة عن سيرة ابن الخطيب وجوانب حياته الشخصية المختلفة : ميلاده ، أسرته ، نسبه ، القابه ، وزارته الاولى والثانية، حياته فى المغرب وتلمسان ابان منفاه، علاقاته برجال عصره، وكتاباتة، ومقابل هذه الملامح الخارجية لشخصيته وحياته يمكن انه تعطى مؤلفاته المختلفة ملامح نشاطه الفكرى والذهنى وتطوره الروحى . ويجمع هذين المجالين الخارجى والداخلى ، المادى والفكرى ربما امكن تقديم صورة واضحة وأمينة متكاملة للبيئة السياسية والاجتماعية التى ظهر من خلالها مفكرنا والتى توضح الآراء المختلفة التى قال بها والتى تبين لنا ان ابن الخطيب كان من صناع احداث هذه البيئة .

(٢) حياة ابن الخطيب .. ملامح خارجية :

هو لسان الدين ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن على بن أحمد السلمانى (ترجمته فى الاحاطة)، فاسمه محمد وكنيته ,,ابا عبدالله,, وقد عرف بلسان الدين لشهرته الزائدة، ولقب بلسان الحلة والدين ,,وبذى الوزارتين,, السيف والقلم . وعرف بذى العمرين وأضاف البعض وذى الميتتين .

ولد فى الخامس والعشرين من رجب عام ٧١٣هـ (١٦ نوفمبر ١٣١٣م) ولد وتربى بقرطبة، وحفظ القرآن فى طفولته على كبار مشايخها الذين يذكروهم فى ,,الاحاطة,, (١٢) وفى غيرها من كتبه، ويعرض لهم المقرئ فى المجلد الاخير من ,,النفح ...,, (١٣) أسرته تنتمى الى عرب اليمن وقد هاجرت الى الشام ثم الاندلس واستوطنت قرطبة ,,وهم اهل علم وبيت فقه,, (١٤) انتقلوا من قرطبة الى لوشه وقد

وصل والده الى منصب الوزارة، وقد تولى لسان الدين الوزارة بعد ذلك خلفاً لابييه للسلطان يوسف بن اسماعيل النصرى ثم لابنه محمد الغنى بالله . وبعد قيام الثورة ضد السلطان لجأ مع وزيره الى ,,فاس,, لدى السلطان ,,ابى سالم المرينى,, وهناك التقى ابن الخطيب مع الفيلسوف العلامة ابن خلدون وتوثقت بينهما العلاقات . حيث يصفه الاخير بانه ,,شاعر الاندلس والمغرب فى عصره,, ، وانه كان ,,فى اللسان ملكة لاتدرك,,. الا ان العلاقة بينهما لم تستمر على هذا الحال بسبب التنافس السياسى ، وتطلع كل منهما للمناصب وخشيته من نفوذ الآخر وقد رغب ابن الخطيب فى الاستقرار بمدينة ,,سلا,, فاذن له السلطان المرينى وكان نتيجة استقراره بها كتابه ,,نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب ,, وحين استرد الغنى بالله ملكه بعد نفى ثلاثة سنوات تولى ابن الخطيب الوزارة الثانية التى استمر فيها عشر سنوات ,,اصبح صاحب الكلمة العليا فى الدولة بيده الحل والعقد ,, انصرفت اليه الوجوه وعقدت عليه الآمال وغشى بابه الخاصة والعامة ,,فكثر حساده وسعى اعداؤه - ومن بينهم تلاميذه ومن كان السبب فى توليهم المناصب - للحط من قدره ومكانته لدى السلطان . فغادر البلاد خشية ان تؤتى هذه الوشايات ثمارها . الا ان اعداءه لم يتركوه وشأنه بعد فراره وهربه الى تلمسان فبحثوا فى اقواله وكتاباتاه خاصة ,,روضة التعريف بالحب الشريف ,, (١٥) . واستخرجوا بعض المسائل المتعلقة بالحب الالهى وكونوا منها عريضة اتهم اقرها السلطان الغنى بالله لمحاكمة ابن الخطيب .

والحقيقة ان هذا الموقف يتجاوز شخص ابن الخطيب الى ان يصبح موقفاً عاماً يغلب عليه كراهية الفلسفة والعلوم العقلية ومن يشتغلون بها (١٦) حيث عمد خصوم ابن الخطيب الى بعض عبارات

كتابه ,,روضة التعريف ...,, ونسبها الى الزندقة والقول بالحلول والاتحاد والانخراط فى سلك اهل الالحاد وسلوك مذاهب الفلاسفة فى الاعتقاد .

ويبدو ان رد ابن الخطيب على هذه الاتهامات التى وجهها اليه كل من : أبو عبدالله بن زمرک والقاضى ابو الحسن النباهى اتجهت الى الدفاع عن شخصيته والتقليل من اصل خصومه واشخاصهم، ولم تبخه الى تحليل التهم والدفاع عن القضايا التى اثرت والتى ترجع فى الحقيقة بي الضغينة والحقد السياسى (الشخصى) ولا يوجد بها شئى واضح يمكن ان يستند اليه الاتهام . فقد ترجم ابن الخطيب فى ,,الكتيبة الكامنة فمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة ,, للنباهى مزينا ترجمته له بالمطاعن المقدعة ناعتا اياه ,,بالجعوس,, اى الفزم الذميم . ثم وضع رسالة مستقلة سماها ,,خلع الرسن فى التعريف باحوال ابى الحسن,, ، وكتاب آخر حول ,,المباخر الطيبية فى المفاخر الخطيبية,, ذكر فيه تباهيه بسلفه ومالهم من المجد والشرف . وكما نرى فقد كانت ردوده اقرب الى الهجو منها الى التحليل والنقد .

ويمكننا فى محاولة تحليل هذه الاتهامات ومناقشة ماجاء فيها ان نشير منذ البداية الى ارتباط لسان الدين بالتصوف السنى الذى قدم فيه معظم كتاباته مقابل التصوف الفلسفى الذى نجده لدى اصحاب الشطحيات والنظريات الفلسفية والتى كان لسان الدين بعيدا عنه ، ورغم اننا لانستطيع الوقوف على سلسلة مشايخه فى التصوف الا ان هناك احتمال دراسته على الشيخ ابن الحاج كما أكد على ذلك الشيخ مصطفى الشبراوى الذى يرى ان اقوال وكتابات ابن الخطيب لاتطعن فى سلوكه الطريق الصوفى ، وهو ببراء لسان الدين ويرى ان الحكم عليه كان دعوى بلا برهان . وهو يؤكد ايمانه بالألوهية وتأكيده لوجود

الله ، وقدرته على جميع الممكنات كما يظهر ايمانه وحسن عقيدته
السنية .

واقواله فى الاتحاد والحلول تظهر موقفه من القائلين بها، اى امة
وظيفته هى العرض فقط بل وهو يرفض القول بالاتحاد ويذكر كثيرا من
الادلة على بطلان الحلول والاتحاد ، والا هم من ذلك ان ابن الخطيب
انتهى من تأليف كتابه اوائل ٧٦٩هـ، ولم يوجه اليه الاتهام فى هذه
الفترة ، بل ظهر بعد مغادرته غرناطة فى رجب ٧٧٣هـ، اى بعد انتهاء
تعوذه . وبعد عدة دسائس سقطت فاس فى ايدى اعداء ابن الخطيب
الذين سلموه الى سلطانه الغنى بالله ليقيم عليه الحد، الا انه حوكم فى
فاس وسجن وقتل فى سجنه ودفن ثم اخرج من قبره واحرق واعيد الى
حفرته .

ويبدو انه كان متوقعا مصيرة المحزن فرش نفسه بهذه الايات :

وكنا عظاما فصرنا عظاما

وكنا نقوت فيها نحن قوت

وكنا شمس سماء العلاء

غربنا فناهت عليها السموت

فكم جدلت ذا الحسام الطبا

وذو النجت كم جدلته النجوت

وكم سيق للقبر فى خرقه

فتى ملئت من كساه التخوت (١٧).

(٣) مؤلفات ابن الخطيب وتطوره الروحى :

على الرغم من ان ابن الخطيب كان متعدد الجوانب فى نشاطه
الفكرى والأدبى ، بلغ الذروة فى كل ناحية الا ان السياسة كانت اهم
اهتماماته فهو الكاتب الشاعر حيث يرتفع فى الشعر الى أسمى

المراتب ، ويمتاز شعره بالتنوع الكبير . وهم ما امتاز به فى النشر هو ذلك النوع من ,,النشر الوزارى والسياسى ، حيث ترك تراثا ضخما من المراسيم والرسائل السلطانية التى صدرت عنه أيام توليه الوزارة . وقد لفت اهتمامه المتزايد بالسياسة نظر الكثير من الباحثين .

يقول مورينو نييتو (Moreno Nieto) لا يوجد فى تاريخ غرناطة الادبى ما يمكن ان يقارن بهذا الكاتب الخطيب الذى كانت له معارف موسوعية حقة وعبقرية تدعو الى الاعجاب ، وقد برع بالاخص فى علم السياسة ، وفى التاريخ وقد شهد حوادث سياسية لعب فيها دورا كبيرا وهو عند العلامة سيمونيت (Simonet) امير الادب الغرناطى حيث يصفه بانه عالم كبير وفيلسوف ، ويخصص له كوثالث بالسيا ترجمة فى كتاب ,,تاريخ الأدب العربى الاسبانى ,, يقول فيها : ,, ان تاريخ القرن الرابع عشر يبلغ الذروة باسمين عظيمين هما ابن الخطيب المؤرخ السياسى الاديب وابن خلدون منشئ فلسفة التاريخ ,, . واستحق لقب ذى الوزارتين لكونه السياسى والكاتب العظيم وآخر عملاق فى الآداب العربية الاسبانية ,, (١٨) وتلك الناحية سوف نركز عليها فى تناولنا لابن الخطيب .

وينبغى الإشارة الى بعض الملامح الاساسية التى تميز كتابات مفكرنا وهى : الموسوعية والتداخل والترابط بين كتاباته المختلفة والتنوع فى مجالات الكتابة ، ويمكن ان نتناول انتاج ابن الخطيب الفكرى مرتباً حسب اهتماماته الاساسية :

اولا : التاريخ والكتابات التاريخية، حيث تغلب عليه صنعة المؤرخ حيث وضع أهم كتبه التى يؤرخ بها لأحداث عصره خاصة التأريخ للدولة النصرىة . ويتسع فهمه للتاريخ بحيث يشمل التاريخ الحضارى . ويتضح مفهومه للتأريخ فى موضعين : اولهما فى مقدمة الاحاطة ،

وفصل خاص فى بداية ,,اعمال الاعلام...,, ويعتبر كتاب ,,الاحاطة فى اخبار غرناطة,, أهم جهود ابن الخطيب التاريخية ، يليه ,,اللمحة البدرية فى الدول النصيرية ,, و ,,الكتيبة الكامنة ...,, و ,,التاريخ المحلى فى مساجلة القدح المعلى ,, و ,,اعمال الاعلام... ,, و ,,رقم الحل فى نظم الدول ,, و ,,نفاضة الجراب فى علاله الاغتراب ,, و ,,الاكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر ,, و ,,طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر,, و ,,عائد الصلة,, و ,,كناسة الدكان بعد انتقال السكان,, .

ثانيا : الجغرافيا والكتب الجغرافية : لم تكن الجغرافيا دراسة مستقلة عند ابن الخطيب بل يمكن النظر اليها باعتبارها جزء من التاريخ بمعناه الحضارى الشامل . فكان يقدم لنا نوعا من الجغرافيا الوصفية، وجغرافيا الرحلات كما نجد فى رسالته. ,,خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف,, ، و اجزاء من مقدمة ,,الاحاطة,, و ,,نفاضة الجراب ,, ورسالته ,,معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والآثار,, و ,,المفاخرة بين مالقه وسلا,, ويشير رحين مونس الى الاشارات الجغرافية لدى ابن الخطيب فى كتابه : ,,الجغرافيا والجغرافيون فى الأندلس,, .

ثالثا : الكتاب الفلسفية والطبية . وتشمل مؤلفاته فى فروع الفلسفة المختلفة النظرية والعملية من سياسة واخلاق ثم التصوف . ويمكن ان نشير الى كتابه زوضة التعريف بالحب الشريف، وكتاب ,,المحبة,, (١٩) ورسالته الصوفية فى ,,استنزال اللطف الموجود فى سر الوجود,, (٢٠) و ,,المنهل العذب فى شرح اسماء الرب ,, (٢١).
ومن الكتب الطبية : ,,الوصول لحفظ الصحة فى الفصول,, و ,,مقنعة السائل عن المرض الهائل,, و ,,ارجوزة فى فن العلاج فى

صنعة الطب ، و ،عمل من طب لمن حب ، ، وقريب من هذا المجال ،
 ،رجز فى الاغذية، و ايضا ،الارجوزة المعلومة، وموضوعها علاج
 السموم وكتابه الهام ،،اليوسفى فى صناعة الطب ، و ،الرجز فى
 الترياق الفاروقى، و ،البيروزة ، و ،البيطرة، و ،المسائل الطبية،
 وغيرها .

وتتعدد كتاباته السياسية ويأتى فى مقدمتها : ،،بستان الدول ،،(٢٢).
 و ،،تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة، ثم كتاب الاشارة او ،،الاشارة
 الى ادب السياسة فى الوزارة، .

واخيرا الكتابات الادبية المتنوعة، وتشمل اكبر جانب من انتاج
 ابن الخطيب التأليفى ، مثل : ،،جيش التواشيح ، و ،،السحر والشعر،
 و ،،الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة ،
 وديوانه الصيب والجهام والماضى والكهام، ، هذا عدا رسائل مختلفة
 فى موضوعات متباينة ، ويهمننا من مؤلفاته السابقة الكتابات السياسية
 حتى نستطيع بيان اهتمامات ابن الخطيب السياسية والمؤشرات التى
 ساعدت على تحديد افكاره الأساسية .

(٤) السياسة عند لسان الدين ابن الخطيب :

يعد الفكر السياسى لدى ابن الخطيب من الجوانب الأساسية فى
 تفكيره التى لم تحظ بعناية الباحثين، رغم ان السياسة والكتابات
 السياسية من اكثر المؤلفات حضورا فى نتاج العلامة الاندلسى (٢٣).
 ومن هنا دار اهتمامنا فى هذه الدراسة حول الفكر السياسى والكتابات
 السياسية عند ابن الخطيب .

وينبغى علينا منذ البداية تحديد المصادر ومؤلفات ابن الخطيب
 السياسية وعلينا تحديد مفهوم النظرية السياسية كما ظهرت فى كتاباته.
 ومن البداية نجد تضاربا بين المصادر التى تحدثت عن هذه المؤلفات،

وهل هي موجودة ام مفقودة وهذا يقتضى تحديد هذه المؤلفات من خلال كتابات ابن الخطيب نفسه ، الذى يذكر فى الاحاطة ان له :
 ,,رجز فى السياسة، وكتاب الوزارة ومقالة السياسة ,, ويضيف : ,,ان من التواليف القديمة,, بستان الدول,, ... كمل منه نحو ثلاثين جزء تقارب الاسفار ، وفى نفاضة الجراب يذكر : ,,ارجوزة ثالثة فى فن السياسة وهى ,,تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة,, . وحدد لنا الدكتور العبادى اعمال لسان الدين السياسية فى خمس هى :

- الاشارة الى ادب السياسة فى الوزارة .
 - رسالة فى غرض السياسة (مقامة) .
 - قصيدة فى السياسة .
 - ,,رسالة فى احوال خدمة الدولة ومصائرهم وتنبئهم على النظر فى الرياسة بعيون بصائرهم,, .
 - رسالة السياسة باللغة القشتالية كتبها للملك بدور الفاسى .
- ويعطينا المقرئ فى الباب السادس من المجلد السابع من كتابه ,,نفح الطيب, قائمة أخرى .
- ونجد فى كتاب ابن الخطيب ,,ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب,, بعض رسائله فى السياسة خاصة : ,,رسالة السياسة,, و ,,كتاب الاشارة الى ادب الوزارة فى السياسة,, وبعض اجزاء من ,,بستان الدول,,. ويذكر محمود قاهر الشريف فى مقدمة تحقيقه ,,الصيب الجهم والماضى الكهم,, : , كتب ابن الخطيب يهنا منها المخطوطات التى اطلع عليها فى المكتبة العامة بتطوان والخزانة العامة بالرباط, . وكذلك يفعل العلامة المصرى محمد عبدالله عنان الحجة فى الاندلسيات وذلك فى الفقرة الخامسة من الباب الاول عن تراث ابن الخطيب الفكرى. ونستطيع اعتمادا على كتب ابن الخطيب وباحثيه السالفين ان تكون الثبت التالى لأعماله فى السياسة .

أ - كتاب الاشارة الى ادب الوزارة فى السياسة، ذكره فى الاحاطة و موجود بنصه فى ريحانة الكتاب ، وقد نشره السيد عبدالقادر زمامة بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

ب - مقامة فى السياسة ، أشار اليها فى الاحاطة، والريحانة والنفاضة ، وأشار اليها المقرئ وعنان، وهى رسالة بين فيها واجب السلطان وصفات الوزير واحوال الجند والعمال وحسن اختيارهم والأولاد وحسن تربيتهم وذلك فى صورة مقامة بطلها الخليفة هارون الرشيد وشيخ حكيم يتلو عليه آراء فى موضوعات السياسة .

ج - أرجوزة ,,تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة,, اشار اليها هو و بعض باحثيه ويبدو انها مفقودة .

د - بستان الدول ، بلغ ثلاثين مجلداً ولم يكتمل ربما بسبب احداث حياة ابن الخطيب وبعض المصادر (عنان) توضح لنا محتوياته فهو على شكل عشر شجرات اولها شجرة السلطان والوزارة والكتابة، والقضاء والصلاة، والسلطة والحسبة، شجرة العمل ، والجهاد وهما فرعان اسطول وخيول وتاسعتها شجرة الاطباء والمنجمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجية والشعراء والمغنين وآخرها شجرة الرعايا .

هـ - رسالة فى السياسة كتبها بالقشتالية ونسبها اليه الأسباني لويت دى ايلالا والعبادى .

(٥) - حول اصالة الفكر السياسى عند ابن الخطيب :

تحدد لنا صياغة كتاب ابن الخطيب المفقود ,,بستان الدول,, الطريقة التى فكر بها فى موضوعاته ، وذلك حسب الاولوية التى اعطاها لكل منها وهى طريقة الترتيب الهرمى التى تضع اسمى

الموضوعات واشرفها اعلى مكانة ، ويأتى بعدها الاقل شرفاً والأدنى، وفي هذا الكتاب نجد أولاً شجرة السلطان ثم الوزارة حتى شجرة الرعايا التي لا توجد الا من خلال السلطان . ويبدو ان هذا الترتيب للطوائف والطبقات يقترب من فهم افلاطون الذى يقسم المجتمع الى حكام وجند واصحاب المهن والرعايا وان كانت فكرة المجتمع غير واردة عند ابن الخطيب ، الا ان طريقته فى التفكير جعلت من الممكن رد أفكار لسان الدين الى اصول افلاطونية يونانية امراً ميسوراً . وينقلنا الى قضية التأثير والتأثر التي تتضح فى الدراسة الخاصة بـ ,,جوانب من الفكر السياسى لسان الدين بن الخطيب ,, التي قدمتها وداد القاضى ، وهو نفس موقف الدكتور دوجلاسى مورثون دنلوب فى بحثه ,,الاعمال السياسية المجهولة لسان الدين بن الخطيب,, (٢٤)، الذى بين ان المقامة صورة من كتاب السياسة لافلاطون ترجمة احمد بن الداية، او كتاب العهود اليونانية المستخرجة من كتاب السياسة وهى تشكل فى زعمه تطويراً للعهد الاول . وان كتاب ,,الاشارة الى ادب الوزارة,, أقرب الى العهد الثانى (عهد الوزير الى ولده) .

وترى وداد القاضى ان التدقيق فى الرسالتين يظهر انهما عملان خاليان من الاصاله ,, ، ويبدو انها تعتمد على مقالة دنلوب وكتاب عمر المالكي : ,,الفلسفة السياسية عند العرب ,, و ,,الاصول اليونانية للنظرية السياسية فى الاسلام,, (٢٥) للدكتور عبدالرحمن بدوى . ويمكن اعتماد هذه الكتب فى مناقشة الزعم بتأثر لسان الدين بمصادر يونانية، تقول وداد القاضى ان ابن الخطيب لم ينسخ النصين اليونانيين وانما اخضعهما لتغيرات عدة، هذه التغيرات تدل انه كان على وعى دقيق بما يريد ان يعتمد من النصوص أساساً لعمله . الاحكام تتضارب حول اصلته، وتنقل مباشرة من مصادر متعددة : دنلوب، بدوى . وهى ترى ان

التغيرات التي اجراها ابن الخطيب على النصوص اليونانية انما اجراها لتخدم غايات ثلاثة كانت تحكم تفكيره السياسى وهى :

اولا : وضع النصوص اليونانية فى اطار عربى اسلامى .

ثانيا : جعل هذه النصوص مرآة تعكس فيها تجربته السياسية .

ثالثا : تطويع النصوص بحيث تؤكد على الناحية التطبيقية فى الفكر السياسى اكثر من الناحية النظرية وخاصة فيما يتعلق بدور الوزير المميز ناصحا وموجها .

ويمكننا بالمقابل اعادة ترتيب هذه الملاحظات حتى تتفق - من وجهة نظرنا - وحقيقة تفكير ابن الخطيب . فالنص اليونانى المفترض انه الاساس (الملاحظة الاولى) يأتى بعد التطبيق العملى لا النظرى للسياسة (الملاحظة الثالثة) معتمداً على خبرة ابن الخطيب السياسية (الملاحظة الثانية) وتراثه الثقافى الاسلامى : الفلسفى والادبى . وتفترض الدكتورة القاضى ان ابن الخطيب نقل ونسخ عن اليونانية (من خلال نص العهد اليونانية) لاحمد بن الداية . وربما يكون الاقرب الى الصحة ان أحمد بن الداية لم ينقل او يترجم بل الف كتابه كما يظهر من حديث د . بدوى الذى يعدد الأدلة على ذلك، (٢٦) كما يتضح من نص المقامة الذى تقع احداثه بالمشرق وليس بالمغرب بين هارون الرشيد وحكيم فارسى الاصل (وليس يونانيا) . واستشهاد ابن الخطيب بآيات القرآن والاحاديث النبوية والشعر العربى والمأثورات ، والتحليل اللغوى لمفهوم الوزارة ، مقابل خلو النص من اى نقط او مصطلح يونانى يؤكد اعتماد لسان الدين على تجربته السياسية العملية من جهة وتراثه الاسلامى من جهة ثانية .

(٦) الاطار العام للنظرية السياسية عند ابن الخطيب :

بعد مناقشة مسألة وجود تأثير يونانى فى القسم السابق نتناول هنا المصادر الاسلامية التى تحدد الاطار العام للنظرية السياسية عند لسان

الدين على الشكل التالي :

أ - نظرية ابن الخطيب السياسية اسلامية ذات سمة توفيقية والتوفيق هنا بين السياسة المدنية وهي جزء من التراث العقلي العربى الاسلامى وان كان ذوجذور يونانية من جهة وبين الشرع من جهة ثانية، كما يقول ابن الخطيب فى رسالة السياسة : ,,هذا الامر قلادة ثقيلة من خطة العجز مستقيلة، ومفتقرة السعة الذرع وربط السياسة المدنية بالشرع،،(٢٧) ويقول : ,,وعليك خدمة الملك بموجب الشريعة،،(٢٨) . فالشرع اساس بناء الحكم . ان على الوزير حمل الخاصة والعامة على حكم الشرع، فان لم تبين الامر على ذلك هدمته،،(٢٩). وفى رسالة السياسة يقول : ,,اعلم ان حسن القيام بالشرعية يحسم عنك نكاية الجوارح ويسمو بك الى المعارج،،(٣٠) .

ب - ونظرية ابن الخطيب بناء على ذلك جزء من الفكر السياسى فى الاسلام .

ج - غلبة الاتجاه الاخلاقى الارشادى على التحليل العلمى، كما يتضح من افتتاحية كتاب ,,الاشارة الى ادب الوزارة ،، و كما يظهر فى نصائح الوزير لابنه ، وفى حديثه عن الملك وعلاقته بالرعية . ونفس الموقف نجده فى رسالة السياسة .

(٧) أسس النظرية السياسية (تحديدات مبدئية):

الحديث عن اسس و اركان النظرية السياسية يعنى كوننا فى صلب فكر ابن الخطيب السياسى الذى يظهر على انه ذو نزعة عملية حيث يصبح مصطلح السياسة مردافاً للنصائح العملية للملك والوزير فيما ينبغى عمله ، ومقابل ذلك نجد مفهوما حضاريا اوسع للسياسة يتضح فى الشذرات الباقية من كتابه ,,بستان الدول،، الذى يعد موسوعة

ضخمة فى الفكر السياسى تتناول كافة جوانبه، حيث يشتمل الكتاب على عشرة اشجار تمثل كل منها ركنا من اركان السياسة . اولها ،،شجرة السلطان،، التى افاض ابن الخطيب الحديث عنها فى كافة رسائله . وثانيها ،،شجرة الوزارة،، وفيها ابدع كتابه ،،الاشارة الى ادب الوزارة فى السياسة،، والكتابة والقضاء والصلاة والحسبة ... الخ .

وسوف نتحدث هنا عن كل عنصر من هذه العناصر على حدة باعتباره اساسا من اسس النظرية السياسية ونعقب عليها بخاتمة عامة.

أ- السلطان وهو الحاكم الفعلى الذى له حق الحكم

والولاية (٣١). لا يحدده ابن الخطيب ولا يوضع الشروط العامة له

لأن منصبه كوزير دون منصب السلطان ومن هنا لا يستفيض فى

الحديث عن السلطان مثلما يفعل فى حديثه عن الوزير، والملك

(السلطان) عنده هو قمة الدولة له القوة واليد العليا وهو الذى

يختار الوزير . ويحذر ابن الخطيب الملك من خطورة اختيار

الوزير ويقول : ،،اجتنب فيهم من يرى فى نفسه الى الملك

سبيلا،، وبالإضافة الى قيام الملك باختيار الوزير، وضرورة ان

يكون ذا صفات خاصة وان يتأكد من ولاءه بارسال عيون

الملاحظة فى آثاره ثم اختياره للعمال والجنود . والقيام على

عمارة الدولة وتشبيدها فهى تخليد ذكره . ويبدأ بعد ذلك فى

تحديد مهامه وهى اقامة العدل واحقاق الحق . وهذا فيما يتعلق

بالناحية القضائية اما الناحية الاقتصادية ، والتي لها اهمية كبرى

عند ابن الخطيب فهو يشير اليها اشارات تؤكد ضرورة الاهتمام

بها فى اقامة العمران والتخطيط للبلدان وتحقيق الكفاية للرعاية

والعمال والجنود من اجل الاستتباب والأمن . وذلك بتأكيد

اهمية المال الذى يجب الحرص عليه من اجل مواجهة الصعاب

وتحقيق رفاهية الرعية، بل هو الذى يحقق الأمن عن طريق اعداد القوة والسلاح للدفاع عن الوطن .

يربط ابن الخطيب بين المال والدفاع عن الحصون فى حالتى الحرب والاستعداد للحرب ويؤكد على اهمية فترات السلم والصلح والمهدنات فى الاستعداد للقتال وعدم الركون للتراضى والدعة . وقد اهتم ايضا بالناحية الثقافية والعلماء والفقهاء ، وقد اشار الى ذلك فى ،،بستان الدول، (الشجرة التاسعة) حين يتحدث عما يضطر اليه باب الملك من الاطباء والمنجمين والبيازرة والبيطرة والفلاحين والندماء والشطرنجية والشعراء والمغنين وما اليهم من علماء وفقهاء وغيرهم . وبعض هؤلاء اقرب الى اصدقاء الملك من كونهم عماله أو جلساء مجلسه الخاص ، ومن هنا يتعين عليه الدقة فى اختيارهم . ويربط لسان الدين بين الرخاء وتوفر الاموال وبين الرفاهية والحضارة فالكثر من العلماء والفقهاء يزين قصور الحكم ويعلى من شأن الدولة .

ب - الوزير ، وهو القائم بالوزارة ، وهو منصب جل خطير، لانها الاداة الحقيقية فى الحكم وتأتى اهميتها من كونها مرآة الحاكم . ويبالغ ابن الخطيب فى اهمية مهمة الوزير حيث يرى انه اذا فسد الملك وصلح الوزير صلحت الدولة والعكس غير صحيح ، الوزير مشارك فى القيادة السياسية . وهو ضرورة لاتحتمها فقط الحاجة العملية الدنيوية بل هناك من البراهين الدينية مايسوغها ويعطى ابن الخطيب نظرية متكاملة لبيان طبيعة منصب الوزارة والوزير ويحدد اهمية (قدررتبة الوزير) وشروط اختيار الوزير وذلك فى ستة اركان هى :

- الركن الأول : طبيعة الوزير وشخصيته وهو ما يطلق عليه المبدأ الذى عليه المعول فيما يستشعر الوزير بينه وبين نفسه ويجعله هجيرة فى يومه وامسه

- الركن الثانى : وهو يتعلق بالعلاقة بين الوزير والملك .
- الركن الثالث : سلوكيات الوزير .
- الركن الرابع : فى تصنيف اخلاق الملوك للسير بمقتضاها والسلوك .
- الركن الخامس : فى سيرته (الوزير) مع اقرانه .
- الركن السادس : فيما تساس به الخاصة والبطانة وذو والدالة والمكانة .

ج - العمال وبالإضافة الى السلطان والوزير ركنى الدولة البارزين هناك أيضا العمال والجنود وغيرهما ممن تحتاجهم الدولة لاستكمال هياكلها وهناك العديد من الوظائف العامة التى يشغلها هؤلاء وقد خصص لكل فئة منهم شجرة خاصة فى بستان الدولة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء الكتاب ومنهم تكون الوزارة فيما بعد . وتبدو لهذه المهنة أهميتها فأصحاب القلم هم مستشارو الملك وهم العلماء تستضيئ الدولة بانوارهم . وهناك أيضا السلطة، والحسبة (المحتسب) ، ثم الفقهاء والقضاة وهو منصب دينى فى الأساس له من الأهمية ما يوازى منصب الوزارة، ثم يجعل فى الشجرة السادسة (العمل) يفيض ابن الخطيب فى بيان مهام وطبيعة وظيفة كل منهم ودوره فى تماسك الدولة وعلاقته بالسلطان مما يجعلنا نعدده بحق من كبار فلاسفة السياسة فى الفكر العربى الإسلامى امثال الفارابى والماوردى وابن حزم والعامرى وغيرهم .

هوامش ومراجع الدراسة

- ١ - لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة . تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة فى ٤ مجلدات طهرت اعوام ٧٣ ط . ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٩٧٧ م ، ترجمة ابن الخطيب لنفسه ص ٤٢٨ - ٤٦١ .
- ٢ - لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، القسم الثانى ونشر بعنوان ,,تاريخ اسبانيا الاسلامية,, تحقيق ليقى بروفنسال، بيروت دار المكشوف ١٩٥٩ م . القسم الثالث تحقيق د . أحمد العبادى و ابراهيم الكنانى بحث عنوان تاريخ المغرب القربى فى العصر الوسيط ، دار الكتاب الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .
- ٣ - لسان الدين بن الخطيب : التاج المحلى مساجلة القدح المعلى (مخطوط) الاسكوريال رقم ٥٥٤ لوحه ٩٣ أ ، ٩٤ أ ، والترجمة نقلها محمد عبدالله عنان فى كتيان عن لسان الدين بن الخطيب ، القاهرة مكتبة الخانجي ، ص ٣١٢ .
- ٤ - لسان الدين بن الخطيب نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب تحقيق د. أحمد مختار العبادى دار الكاتب العربى القاهرة انظر ص ٢٢ ، ٢٣ ، والفصل الخاص بمؤلفاته صفحاته ١٢١ - ١٧٧ .
- ٥ - ابن خلدون : كتاب العبد وديوان المبتدأ والخير ، القاهرة ، ج ٧ .
- ٦ - ابن خلدون التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا تحقيق محمد بن ثابت الطبخى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥١ م .
- ٧ - ابو زكريا بن يحيى (بن خلدون) بقية الرواد من ذكر الملوك من بنى عبدالوادرى ، مطبعة بيير فونتانه الجزائر الشرقيه، ١٩٠٣ - ١٩١٠ م .
- ٨ - ابن الاحمر : نثر فرائد الجمال فيمن نظم فحول الزمان تحقيق رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٧ م .
- ٩ - المقرئ (شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني : نفع الطيب ، احسان عباس فى ٨ مجلدات ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٨ م .
- ١٠ - المقرئ : ازهار الرياض فى اخبار عياض ، مصطفى السقا، ابراهيم الايبارى فى ٣ - اجزاء ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ٣٩ - ١٩٤٢ م .
- ١١ - انظر كل من : ابن العماد : شذرات الذهب فى اخبار من ذهب، ابن العباس التنبكى الصنهاجى نيل الابتهاج بتطريز الديقاج الذى ذيل به الديقاج لابن فرحون، والحافظ الشوكانى فى ,,البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع . وابن حجر العسقلانى : فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، وابن غازى فى الروضى المهتون فى اخبار مكناس الزيتون، والمكناس فى جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس ، ودرة المجال فى غرة اسماء الرجال .
- ١٢ - ابن الخطيب : الاحاطة ص ٤٢٨ وما بعدها .
- ١٣ - المقرئ : نفع الطيب ج ٧ ، ص ٦ .
- ١٤ - الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع، مطبعة السعادة القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، المقرئ : النفع ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

- ١٥ - لسان الدين بن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف تحقيق عبدالقادر أحمد عطاء ، دار الفكر العربي، القاهرة د. ت . انظر نص الاتهام فى كل من ابو الحسن النباهى : قضاة الاندلس ص ٢٠٢ ، والمقرى : نفع الطيب ، ج ٣ ، ص ٦٧ .
- ١٦ - يقول المقرى : ,,كل العلوم لها عندهم الحظ الا لفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة . فاين قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فاين ول فى شبهه رجموه بالحجارة أو احرقوه قبل ان يصل امره الى السلطان وكثيرا ما يأمر ملكهم باحراق كتب هذا الشأن ان وجدت ,, . نفع الطيب ج ١ ، ص ٧٤ .
- ١٧ - المقرى : نفع الطيب ج ٧ ، ص ٣٩ - ٤٢ ، ازهار الرياض ج ١ ، ص ٢٣١ .
- ١٨ - هذه الاستشهادات منقولة عن محمد عبدالله عنان : لسان الدين بن الخطيب ، ص ٢١٥ .
- ١٩ - من أهم الكتب التى كتبها لسان الدين وقد اشرنا اليه فى حديثنا عن محتته وهو يعد بفكرته واسلوبه من اكثر كتابات الفلسفية عمقا وهو يدور حول المحبة الروحية الالهية ويظهر تعمق ابن الخطيب فى التصوف وفنونه ومدارسة المختلفة .
- ٢٠ - هذه الرسالة مخطوطة بالمكتبة العامة بتطوان تحت رقم ٣٥٣ وتحمل عنوان (فصول فى كتاب استنزال اللطف الموجود فى سر الوجود) .
- ٢١ - مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط فى (٢٩ صفحة) تحت رقم ٣٠٧٤ وتاريخها ١٣٠٨م .
- ٢٢ - انظر المقرى : نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٥٥٨ - ٥٦٥ .
- ٢٣ - رغم ان هناك مؤلفات وابحاث عديدة حول ابن الخطيب الاديب والمؤرخ والوزير . انظر د. محمد كمال شبانه: مجلة الدعوة المغربية عدد ٢ السنة ١٩٦٦/٩م وعبدالعزيز عبدالله : ,,الفلسفة والاخلاق عند لسان الدين ,, دار الطباعة المغربية تطوان ١٩٥٣م عبدالله بوطالب : وزير غرناطة ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٦٠م عبدالله ككون : لسان الدين بن الخطيب الكاتب السافر ، مجلة البحث العلمى الرباط العدد ٢ ، عام ١٩٦٤م . وغيرها . الا انه لم يتصدى لدرس الجانب السياسى أحد سوى الدكتورة وداد القاضى فى دراسته بالانجليزية .

فى كتاب :

Lisan al-Din Ebn-al-Hatiban Politics La
Signification du bas Mayen age dans L'histaire
et la Culture du monde musulman Eaix-en
Pravence: Esidus 1978, p. 202

ضمن أعمال مؤتمر الاتحاد الاوربي الثامن لعلماء الدراسات العربية والاسلامية فى مدينة فى
فرنسا ، سميت ١٩٧٦م .

Aix-en-pravence

124 D.M. Dunlop: A'little Known workon politics
by Lisan al-Din Ibn al-Khatib.

- ٢٥ - د . عبدالرحمن بدوى : الاصول اليونانية للنظريات السياسية، دار النهضة ، القاهرة ، مقدمة
المحقق ، ص ٧ - ١٠ .

- ٢٦ - بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٣ ، ٣٠ .
٢٧ - لسان الدين بن الخطيب : رسالة فى السياسة فى الاحاطة ، المجلد الرابع ، ص ٦١٥ .
٢٨ - المرجع السابق ، ص ٦١٦ .
٢٩ - ابن الخطيب : الاشارة الى ادب الوزارة فى السياسة ، ص ٨٠ .
٣٠ - ابن الخطيب رسالة فى السياسة، الاحاطة ، ج ٤ ، ص ٦٢٦ .
٣١ - انظر المصدر السابق ، ص ٦١٨ ، وما بعدها .

